المحور الثالث
اللمالك القديمة في افريقيا جنوب الصحراء

أولا: إمبراطورية غانة :

وتعد أقدم ما تكلم عنه المؤرخون من الممالك السودانية، إذ يرجع تاريخ نشأتها إلى القرن الثالث للميلاد، كما أنها عرفت أطول مدة من الوجود والسيطرة في منطقة السودان الغربي وذلك إلى غاية أواخر القرن الخامس للهجرة/الحادي عشر للميلاد.

1. الموقع والتأسيس:

إن غانة المقصودة هنا بالبحث ليست هي جمهورية غانة المعروفة حاليا، ذلك أن إشارات الجغرافيين العرب المتعلقة بالمنطقة تضم أرجاء لا تمت بصلة إلى ما يعرف الأن بجمهورية غانة، فمعظم المؤرخين يذهبون إلى أنها سيطرت على كل المنطقة الممتدة من بلاد السنغال وحوض النيجر،/ وتمتد إلى جنوب موريطانيا الحالية وجزء من المالي.

أما الإدريسي، فإنه يضع حدودا إقليمية لإمبراطورية غانة بإشارته إلى اتصالها بمقزازة[1] من الغرب، و بلاد ونقارة من الشرق والتي تبعد عن العاصمة الغانية بثمانية أيام و يحددها من الشمال بأرض الصحراء المتمركزة بين أرض السودان وغيرها من أرض البربر من اللملمية. كما يحددها كورنوفان(*Cornevin*) بتلك المنطقة المحصورة في جنوب ببلاد أوكار، و من الشمال الغربي تحدها جمهورية مالي الحالية.

وكانت إمبراطورية غانة في أعز أيام مجدها وذلك أواخر القرن الرابع وبدايات القرن الخامس للهجرة (11/10م). تمتد إلى غاية مناجم الذهب الموجودة في فاليمي وبامبوك وحتى تمبكتو، ومن جهة الغرب كانت تشمل معظم المناطق الشرقية والوسطى لجمهورية موريطانيا الحالية و في الشمال تتوغل إلى عمق الصحراء.

لذلك أصبحت هذه الإمبراطورية بفضل إتساع رقعتها تصنف من طرف المصادر العربية وغيرها من أهم وأكبر ممالك السودان الغربي. فالإدريسي يصنفها بأكبر بلاد السودان وأوسعها قطرا ومتجرا وأكثرها خلقا.

لكن يجب أن نشير أن تاريخ نشأة هذه المملكة يعود إلى القرن الثالث للميلاد عندما تأسست إمارة صغيرة تسمى "غانة" بالقرب من نهر النيجر الأعلى ثم أخذت تتطور وتتوسع إلى أن أصبحت إمبراطورية قوية.

---

[1] و هي نفسها مغراوة.

وقد شكل موضوع تأسيس غانة ونشأتها محور جدل وتضارب بين المؤرخين، وذلك ربما يرجع إلى إيغال هذه النشأة في القدم إلى فترة كانت فيها منطقة السودان ما تزال مجهولة لدى الكثير من المؤرخين.

فالمصادر العربية كانت تجهل أصل كلمة غانة باعتبارها كلمة أجنبية ولا وجود لها في القاموس العربي حسبما يذهب إليه ياقوت الحموي. لكنهم في الوقت ذاته يجمعون على أنها أول إمبراطورية عرفتها منطقة السودان الغربي، وأول إمارة منظمة، قبل أن تصل إلى مرحلة الإمبراطورية. لذلك نقول بأن تاريخ تأسيس مدينة غانة يعود حتما إلى عصور سبقت ظهور غانة الإمبراطورية.

فعندما تحدث البكري عن غانة خلال القرن الخامس للهجرة/11م، كانت هذه الأخيرة موجودة منذ عدة قرون، كما أن هناك من المراجع التي تشير إلى أن تأسيس إمارة غانة يعود إلى القرن الثالث للميلاد، و منهم من يذهب إلى أن نشأة مدينة غانة يعود إلى القرن الرابع للميلاد وأن تطورها بدأ مع نهاية القرن الثامن للميلاد/الأول للهجرة. كما أن المؤرخ السوداني محمود كعت يذكر بأن هناك عشرين ملكا من ملوك غانة قد مضوا قبل ظهور الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان تأسيس مملكة غانة على يد قبائل السراكولي الذين يشكلون مجموعة من القبائل مثل الماركا، الياس سونكة (السوننكي)، ديولا ودافينغ الذين يعدون المؤسسين الحقيقيين لمملكة غانة. وكان ذلك بإيعاز من أمراء يقال أنهم من أصول بيضاء سادوا في واداقودو قبل سبعمائة وخمسين سنة تقريبا من تأسيسها وازدهارها.

ومهما يكن فإن هذه المعلومات تبدو منطقية إلى حد بعيد إذا ما علمنا بأن كلمة ساراكولي تعني في لغة السودان الرجل الأبيض، هذا بالإضافة إلى كلام المسعودي الذي يؤكد هذا المعنى بقوله : «و لما تفرق ولد نوح عليه السلام في الأرض، سار ولد كوش بن كنعان نحو الغرب حتي قطعوا نيل مصر، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميمنة بين المشرق والمغرب وهم النوبة و البجة والزنج، وسار فريق منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم و الماركا و كوكو وغانة وغير ذلك من أنواع السودان».

ومن هنا نستطيع القول بأن أصل مؤسسي غانة القديمة يعدون حاميين من خلال سلالاتهم البربرية والذين بعد تزاوجهم بالسود بدؤوا يكونون شيئا فشيئا طبقة من المولدين الذين تشكلت منهم الإمارات الزنجية.

فهناك عدة إشارات تصب في أن أصل سكان غانة لا يخرج عن دائرة الشعوب البربرية، سواء بالنسبة لقبائل السوننكي التي تنتمي إليها قبائل صنهاجة البربرية، أوسكان دلتا نهر النيجر أين توجد إمارات بربرية مثل ولاتة، زناتة وأودغست من فرع صنهاجة.

فابن حوقل يذكر عن الكندي أن البيضان إذا تناسلوا في بلد السودان سبعة أبطن عادوا في سحنتهم و سوادهم، و إذا توالد السودان في بلد البيضان سبعة أبطن عادوا إلى صورتهم وخلقهم من البياض والنقاء.[2]كما أن السعدي يشير إلى أن هناك اثنتين وعشرين ملكا حكموا غانة قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم كانوا بيضان في الأصل.
و يذهب آخرون إلى احتمال انتساب مؤسسي غانة إلى القبائل االمحلية، وهي قبائل بيضاء سكنت المنطقة مع بداية القرن الثالث للميلاد.إلا أن الشيء الملاحظ هو أن ازدهار إمبراطورية غانة لم يتم إلا في عهد الملوك الزنجيين.

إن اسم غانة الإمبراطورية استمد من اسم غانة المدينة، و به تسمى ملوكها الذين كان يطلق عليهم كذلك لقب (غاناتا)، فهو لقب يطلق على الملك ثم أصبح اسما للإمبراطورية.

ويعتقد الكثير من المؤرخين أن مدينة كومبي صالح هي التي كان يقصد بها مدينة غانة عاصمة الإمبراطورية، ذلك أنه في عام 1914م قام أحد الضباط الفرنسيين يدعي بونيل ميزيير (*BONIL Mezière*) بعملية التنقيب في إحدى المناطق القريبة من الساحل وهي منطقة رملية في أعالي النيجر، فوجد شواهد جعلته يعتقد أن تلك المنطقة بالذات كانت تقع فيها عاصمة غانة، لذلك بدأت أعمال تنقيب في منطقة كومبي صالح الواقعة على بعد 205 ميل شمالي مدينة بماكو (عاصمة مالي الحالية)، كشفت بأن تاريخ هذه المدينة يرجع إلى حوالي 800 أو 900 سنة مضت و هو ما يجعل الإعتقاد بأن المدينة غانة التجارية التي أشار إليها البكري تكون قريبة من هذه المنطقة.

2- التطور السياسي لإمبراطورية غانة :

رغم أن التأسيس الفعلي لمملكة غانة يعود إلى القرن الثالث للميلاد أو بعده بقليل، إلا أن هذه الفترة من تاريخها السياسي تبقى غامضة، ويستمر هذا الغموض إلى غاية نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع الميلاديين الذي يصادف نهاية القرن الثاني وبداية الثالث الهجريين.

و يرجح أن يكون قد حكم غانة أربعة وأربعون أميرا من أصل أبيض منذ القرن الرابع للميلاد وهم تابعين لأجناس سود من شعب السوننكي، الذين يعدون أجداد أمراء السراكولي الذين أتوا من بعدهم. ولكن تبقى المعلومات بشأنهم ضعيفة.

وبدأت غانة منذ العهود الأولى لميلاد المسيح تبرز كقوة اقتصادية و سياسية بفضل احتوائها على الذهب، لكن ظهورها كإمبراطورية لم يتم إلا مع أواخر القرن الثامن وبداية القرن التاسع للميلاد، حيث كانت تربطها علاقات تجارية مع دول شمال إفريقيا خلال هذه الفترة.

[2] إبن حوقل (النصيبي) : صورة الأرض. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 101.

فمنذ عام 745هـ/128مـ، أي بعد سنوات قليلة من فتح المسلمين لبلاد المغرب، بعث هؤلاء حملة استكشافية إلى السودان أين جلبوا كمية من الذهب من مملكة غانة، وقاموا بتهيئة آبار على طول الطريق القديم للصحراء الغربية شمالا في تافلالت، وجنوبا في أودغست وغانة مما يبين تقدير المسلمين لأهمية المملكة من الناحية الإقتصادية.
هذا و نشير إلى أن الفزاري زار غانة حوالي سنة 184هـ/800م، ورسم خريطة للعالم على غرار خريطة بطليموس، فوضع عليها غانة باسم بلاد الذهب.

وهكذا وجدت مملكة غانة كإطار سياسي في السودان الغربي بزعامة شعب السراكولي سالف الذكر غاية نهاية القرن الثاني للهجرة/8 م أين حدثت نقلة نوعية في التاريخ السياسي للمملكة. حيث انفرد بالحكم ملوك شعب السونانكي السود يدعي(كاياماغان سيسي) والتي تعني بلغة السوننكي (ملك الذهب)، و طرد البربر البيض في منطقة الوكر بعدما حكم غانة. قبله عدة ملوك منهم، مثل (بنتغوي داكوراي) الذي حكم حوالي عام 174 هـ/790م، ثم بعده (تكلان) الذي حكم في مطلع القرن الثالث للهجرة/9 م. و جاء بعده بولاتان (أو تلوتان)، الذي حكم حتي عام 222 هـ/837 م، والذي كان يخضع تحت سلطته أكثر من عشرين ملكا سودانيا. و كان ملوك السوننكي عظماء الشأن واستفادوا من الفوضي التي سادت بربر صنهاجة خلال هذه الفترة، ليخضعوا أودغست على يد كاياماغان.

و قد بدأ السوننكي يتوسعون، فبعد إحكام سيطرتهم على أودغست المجاورة لهم واصل خلفاء كاياماغان أعمالهم التوسعية. حتى إذا جاء القرن الرابع للهجرة/10مأصبحت غانة مملكة واسعة تمتد من منطقة جني إلى السنغال وبلاد التكرور جنوبا، أما في الشمال فقد أصبح جزء كبير من قبائل منطقة لمتونة تابعيين لإمبراطورية غانة.

وكانت منطقة ناولي في جنوب تمثل الحد الأقصى لتوسعات غانة جنوبا و لعل أشهر هؤلاء الملوك الذين خلفوا (كاياماغان) هو الملك (بسي) الذي بلغت غانة في عهده شانا عظيما، والذي خلفه ابن أخته تانكامين أو(طونكا) والذي دخلت غانة في عهده مرحلة أخرى من التطور والقوة، فلقد كان قويا شديد الشوكة مهيب السلطان محمود السيرة محبا للعدل مكرما للمسلمين.

ولقد وصل إلى الحكم سنة 455هـ/1063م و أصبح يتميز بصفة القداسة و الأبهة التي تليق بأباطرة العصور الوسطى، حيث كان يعيش في قصر واسع من الحجر واثق البنيان مزخرف بالنقوش وشمسيات الزجاج، لكنه أصيب بالعمي في أواخر أيامه و كان يكتم ذلك عن رعيته.

وعموما فأن الفترة الممتدة بين منتصف القرن الرابع والخامس الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين أزهى عصور الإمبراطورية علي الإطلاق، وخلالها بلغت الإمبراطورية أوج اتساعها وعرفت أقوي السلاطين، بحيث أصبحت رقعتها تمتد إلي غاية

ممالك الجنوب مثل التكرور و الصوصو، و في الشرق إلى دول الدلتا الوسطى النيجرية أين توجد إمارات بربرية مثل ولاتة و أوداغست و شمالا إلى غاية حدود الصحراء في منطقة الحضر بموريتانية.

ولعل سبب بلوغ إمبراطورية غانة لهذه المكانة المزدهرة والامتداد الشاسع قبل غيرها من ممالك إفريقيا الغربية، يعود بالدرجة الأولي إلى قوة جيشها الذي تمكن من استعمال السلاح الحديدي قبل غيره من الجيش السودانية، و حرص ملوكها علي تنظيم الجيش وتطويره فكان لها جيش دائم يبلغ تعداد أفراده أربعة ألاف محارب في وقت الشدة. وكان ملوكها قادرين علي تجنيد مائتي ألف محارب دون صعوبة، و في إمكانهم تسليح أربعين ألف مسلحين بالعصي والرماح.

وكان الملك يتسم بصفة المحارب، حيث أن كل من يجلس علي عرش للإمبرطورية الغانية يلقب "بغانة" والتي تعني في لغتهم " قائد الحرب " أيضا مما يؤكد هذا المعنى. بالإضافة إلى القوة العسكرية استطاعت غانة بناء قوتها بواسطة التجارة و استغلال مناجم الذهب، بحيث فتحوا بلادهم في وجه التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها منذ وقت مبكر.

3- سقوط غانة :

إذا كان آخر القرن الخامس الهجري يشكل أزهي أيام الإمبراطورية، فإنه يمثل في نفس الوقت نهاية التطور السياسي للمملكة، ذالك أن الامبراطورية عرفت ابتداء من منتصف القرن الخامس للهجرة/11م تحولا جديدا في تاريخها ليس السياسي فحسب بل في تاريخها العسكري والحضاري و ذلك بدخول الإسلام إلي المنطقة.

ففي عام 446 هـ/1054م تعرضت إمبراطورية غانة ألي هجوم المرابطين، الذين استولوا علي مدينة أودغست عام 447 هـ/1055م، وهي ثاني أهم مدينة في غانة بعد العاصمة كومبي.

وكان سقوط أودغست في أيدي المرابطين إذانا ببداية النهاية المبراطورية غانة، إذ لم تكن قوة الجيش الغاني وصلابته كافيتين لصد هجمات عبد الله ابن ياسين، و من بعده يحي بن عمر و أبي بكر بن عمر الذي استطاع أن يستولي على العاصمة كومبي سنة 463 هـ/1067م.

إن استيلاء المرابطين علي العاصمة شكل منعطفا مهما في تاريخ الإمبراطورية. فعلى الرغم من أن سيطرة المرابطي علي المنطقة لم يتجاوز العشرين سنة بوفاة قائد المرابطين أبي بكر بن عمر سنة 480 هـ/1087م و عودة السيادة مرة أخرى إلى ملوك غانة القدماء، إلا أن الفتح المرابطي لغانة كانت له عدة نتائج على الإمبراطورية، أهمها انتشار الإسلام، حيث شمل القصر أولا بحيث دخل الملك تنكامين الإسلام وأصبح يخطب لنفسه تحت طاعة أمير المؤمنين المرابطي، وأعطى لمدينة غانة اسم (كومبي صالح) تبركا و بنسبه الشريف

حيث كان يدعي انتسابه إلى ذرية صالح بن عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي. أما النتيجة الثانية لهجومات المرابطين، فهي بداية تفكك الإمبراطورية الغانية التي كانت تضم عدة قبائل وممالك وإمارات سودانية كانت قد أخضعتها في يوم من الأيام بقوة السيف. فكان سقوط غانة تحت ضربات المرابطين فرصة لهذه الممالك و الإمارات للانتقام و الانفصال عن الإمبراطورية. و كانت مملكة التكرور أهم إقليم انفصل عن غانة وتخلص من هيمنتها. و هي مملكة واقعة على ضفاف نهر النيجر دخل ملكها (وار جابي) الإسلام و ساهم في الجهاد الذي أعلنه المرابطون على السودان الوثنيين، و شق عصا الطاعة على امبرطورية غانة ثم واصل ابنه (لابي) سياسة التحالف مع المرابطين و قاتل معهم قبائل جدالة عام 448هـ/1056م و أصبحت لملك التكرور كامل السيادة على نهر السنغال، و سيطرة على مناجم الذهب في (غالام) وتحكم في مناجم الملح بأوليل.

وهكذا كانت مملكة التكرور أول من يستقل عن السلطة الغانية، و يساهم في تقليص مساحتها. كما أن حركة التكرور الانفصالية أخذت طابعا دينيا شجع مسلمي السودان على مقاومة النفوذ الغاني تحت غطاء الجهاد، كما شجع ممالك وإطارات سودانية أخرى وثنية وفسح لها المجال لتنحو منحاها، و من هذه الإمارات نجد إمارة الصوصو الوثنية التي أسسها شعب السوننكي كذلك و ثارت ضد ملك غانة. و سيطر زعيمها (سمنغورو كانتي) على مدينة غانة وطرد منها المسلمين نحو ولاته.[3]كما تشكلت إمارات أخرى مستقلة عن غانة مثل إمارة (دوكوري) و إمارة (وقادو) و (زافون) و (ميما).

وكانت إمارة الصوصو أكثر الممالك عداوة وحقدا وكراهية لملوك غانة، حيث استغلت فرصة ضعفهم و مقاومتهم للمرابطين فبدأت تتوسع في الأرضي الغانية منذ بداية القرن السادس للهجرة/الثاني عشر للميلاد إلى أن استولت على أكبر جزء من الأرضي الغانية التي كان يسيطر عليها ملك غانة تنكامين خلال أيام مجدها الزاهر.

وفي سنة 601هـ/1200-1235م قام ملك الصوصو الوثني الذي يدعى (سمنغورو كانتي) والذي حكم بين 598 و 633 هـ/1200 و 1235 م بالاستيلاء على مدينة غانة، و طرد السوننكي المسلمين منها، وفي عام 638هـ/1240م قام بالهجوم على العاصمة كومبي وخربها.

وهكذا فإن سقوط كومبي كان إيذانا بنهاية غانة التي أصبحت مجرد اسم لامع لأول إمبرطورية سوداء نمت في ظلها حضارة مشرقة. فحتى سكان غانة وهم شعب السراكولي أو (السوننكي) الذين قامت علي سواعدهم و سيوفهم إمبراطورية غانة أصبحوا مجرد أقلية يبحثون عن موقع لهم في السودان الغربي. فبعد إسلامهم وطردهم من غانة من طرف وثني الصوصو لجؤوا إلى مدينة ولاته التي تبعد بـ 200 كم جنوب شرق غانة وأسسوا بدورهم

سنة 622هـ/1224م مدينة ولاته التي أصبحت منذ القرن السابع للهجرة تستقطب العلماء البربر من جدالة و أصبحت بذلك تعوض أوداغست و غانة كمحطة للقوافل التجارية.

2. مملكة الكانم بورنو و مملكة السنغاي :

لقد كانت غانة أقوى الممالك السودانية في أفريقيا الغربية و أولها خلال الفترة الممتدة بين القرنين 4 و6 للهجرة/10-12 للميلاد. و سيطرت على الأحداث في المنطقة خلال هذه الفترة قبل سقوطها مع هجمات المرابطين.

لكن الشيء الذي تشير إليه المصادر هو أنها لم تكن المملكة الوحيدة في المنطقة بل أن الوضع السياسي في السودان الغربي عرف وجود ممالك أخرى تمتعت باستقلالها وبدورها في تاريخ السودان في نفس الفترة التي وجدت فيها إمبراطورية غانة، واستمر وجودها حتى بعد سقوطها. و لعل أهم هذه الممالك وأشهرها في السودان الأوسط و الغربي هي مملكتا الكانم بورنو و السنغاي.

أ- مملكة الكانم بورنو:

اختلفت المصادر العربية حول الحدود الحقيقية لمملكة الكانم، فالبكري يضع حدودها إلى ما وراء صحراء زويلة على مسافة أربعين يوما دون أن يوضح إلى أين تنتهي حدودها جنوبا. بينما يشير ابن سعيد إلى امتدادها إلى غاية النيل المصري شرقا و يشاطره الرأي العمري عندما يذكر بأن مملكة الكانم تبدأ من حدود مصر إلى غاية مدينة تدعى (زيلا). أما الدراسات المعاصرة فتذهب إلى أنها كانت تسيطر على المنطقة التي تبدأ من تبستي الحاليةو منطقة كانم الواقعة شمال جمهورية التشاد و تشمل قسما من جمهورية نيجيريا الحالية.

لهذا نقول أن امبرطورية الكانم يمكن أن تكون قد امتدت إلى أبعد من ذلك، حيث أن ابن سعيد الذي عاصر المملكة في أزهى أيامها واتساعها ذكر بأن بلاد فزان وودان كانتا خلال القرن السابع للهجرة/13م تابعتين لمملكة الكانم، إذ يمكن أن يكون امتدادها قد وصل إلى مشارف البحر المتوسط شمالا.

إن هذا الاختلاف في تحديد أطراف المملكة يرجع إلى اختلاف المؤرخين من حيث معاصرتهم لتطورات المملكة، ومن حالات الضعف و القوة أو الفوضى و الاستقرار.

أما تاريخ تأسيس هذه المملكة، فيكتنفه شيء من الغموض لقلة ما جاء به المعاصرون لهذه الفترة، لكن الروايات الشفوية الشعبية المحلية تضع سنة 184هـ/800م تاريخ نشأة المملكة، و نفس هذه الروايات تقول بأن هناك عائلة بني ساف (أو سفوة) من منطقة (بوركو) جنوب التبستي تحالفت مع قبائل التوبو السودانيين الوثنيين وأسسوا أول مملكة الكانم. وهناك روايات أخرى مفادها أن مؤسسي هذه المملكة إنما هم شعب (البولالا) قبل مجيء الإسلام إلى المنطقة.

و مهما يكن فإن مملكة الكانم ما هي في الأصل إلا تجمع بشري مشكل من مزيج من الشعوب البدوية علي اختلاف أنسابهم ومشربهم مادام أن المنطقة المذكورة تقع في قلب صحراء ممتدة بين صحراء ليبيا وتشاد والنوبة أو التي تشكل مسلكا لحركة البدو الرحل. ويكون احتكاك هؤلاء الرحل فيما بينهم هو الذي شكل الشعب الذي أسس مملكة الكانم فيما بعد، من خلال التنظيم الأسري الجيد الذي كانت تعرفة تلك القبائل.

أما مملكة بورنو فإنها إمارة صغيرة وجدت غرب الكانم علي الضفاف الغربية لبحيرة تشاد. و ملوكها ينسبون أنفسهم إلى سيف بن ذي يزن اليمني، وتختلط بسكانها بعض القبائل العربية. و قد تأسست هذه الإمارة حوالي القرن الثالث للهجرة/9م، قبل أن تتحد مع مملكة الكانم و تكون مملكة قوية في المنطقة و بذلك يبدأ تاريخ الكانم بورنو.

عرفت مملكة الكانم بورنو منذ تأسيسها تطورا سريعا وعرفت عدت ملوك متهورين أمثال (دوكو)، (فونا)، (أرسو)، (كاتور)، (أيوما) وغيرهم. لكن التحول الكبيرة الذي عرفته هذه المملكة كان سنة 478هـ/1085 وهو تاريخ اعتناق عاشر ملوك الكانم الإسلام وهو الملك (هوماي).

إن الإسلام كان قد وصل إلى بلاد الكانم منذ وقت مبكر، إلا أنه لم يشمل كل سكان المملكة، و بقيت العاصمة القديمة وهي (مانان) إلى وقت متأخر تعج بالكفار، لكن بدخول الملك هوماي إلى الإسلام جعل بلاد الكانم بورنو تصبح قلعة من قلاع الإسلام في السودان الغربي والأوسط من خلال عمليات التوسع التي كان يقوم بها من أجل نشر الإسلام في صفوف الشعوب الوثنية خلال الفترة الممتدة من 1085م (تاريخ اعتناقه الإسلام) إلى غاية وفاته عام 1097م/491هـ.

لقد اخضع (هوماي) عدة شعوب وثنية لسلطته، منها مدينة (كوري) التي تسمى بحيرة التشاد باسمها و مدينة (بدي) و (جاجة)، و كان ملك الكانم ينطلق من هذه المدن لغزو بلاد الكفار على جوانب بحيرة كوري، فيقطع مراكبهم و يقتل و يسبي من فيها.

كما بسطت مملكة الكانم سيطرتها على مدن إسلامية كانت قد سلمت على ايدي فقهاء وملوك الكانم، مثل سلطنة (تجوة)، ومملكة (كوار) ومملكة (فزان) ومدينة (رديني). وسيطرت على الشعوب البربرية الصحراوية المتمركزة شرقي جبل (مقورس) الفاصل بين الكانم و إمارة كوكو، و الذين أسلموا على يد سلطان الكانم،يتخذهم عبيدا له و يغزو بهم و ينتفع بجمالهم. وهكذا برز نجم الكانم في السودان الأوسط والغربي بفضل انجازات الملك هوماي الذي في عهده بدأت المعلومات التاريخية حول الكانم بورنو تظهر.

و لقد اتخذ هوماي (نجيمي) عاصمة جديدة للملكة عوض العاصمة القديمة (مانان)، وجلب إليها العلماء والفقهاء الذين كانوا يترجمون القرآن و يعلمون الفقه و نشر الأفكار السياسية الخاصة بالمغرب الإسلامي.

بعد وفاة الملك هوماي عرفت مملكة الكانم بورنو ملوكا عظماء منهم (دوناما الأول) الذي خلف هوماي و حكم خمسين سنة ثم (بير بن دوناما) الذي حكم سبعا وعشرين سنة، و بعده (عبد الله بن بير) الذي حكم سبع عشرة سنة، و كلهم ملوك أقوياء استطاعوا أن يوطدوا أقدام المملكة، و يحافظوا على استقرارها وازدهارها، حيث انتهجوا نظاما سياسيا يرتكز على الإقطاعية المحضة. فالملك ما هو إلا رئيس مجلس العائلة و رئيس مجلس إدارة مزرعة العائلة التي تملك مؤسسة استغلال فلاحي وبشري، كما يقوم الملك الذي يلقب بـ (ماي) أو (ماعي) بفرض ضرائب على القبائل الخاضعة، حيث تشكل مصدر قوته و سطوته.

لكن يبقي عهد الملك (عبد الجليل سيما) الذي حكم بين سنتي 562-617هـ، 1195/ 1220م. قمة ازدهار المملكة بلغت في عهده أوج قوتها واتساعها، أما ابنه (دوناما الثاني) الذي عاصر ابن سعيد المغربي و الذي يصفه بالسلطان المشهور بالجهاد وأفعال الخير، وينسبه إلى ذرية سيف بن ذي يزن فقد كانت الثياب تحمل له من الحضرة التونسية وأسلم على يديه كثير من البرابرة.

إن سياسة التوسع التي انتهجها ملوك الكانم كانت لها نتائج سلبية، حيث تسببت في إنهاك اقتصادها و أكثرت من أعدائها الكفار المحيطين بها، وأثارت نقمة البربر المسلمين الذين استعبدهم ملوكها. كما انتقل الصراع على العرش إلى أحفاد الملك دوناما و بدأت المؤامرات والدسائس والفتن بين أفراد الأسرة المالكة ومناوئهم من القبائل الأخرى تعصف بالمملكة.

فكان دونانما الثاني آخر الملوك الأقوياء، حيث شهد آخر القرن الثالث عشر للميلاد/7هـ بداية الانحدار والتراجع لمملكة الكانم، وبدأت شعوب (البولالا) و(الصوصو) و(التوبو) تثور ضدها. واستولى شعب البولالا على جزء من بلاد الكانم وضموها إلى مملكتهم التي تسمى ببحيرة فيتري. واستمر الوضع المتعفن إلى غاية أواخر القرن التاسع للهجرة/15م، عندما وصل إلى الحكم (علي دوناما) 877هـ/1472م. وأعاد النظام للمملكة و فرض الاستقرار وأسس نواة لمملكة بورنو التي عوضت مملكة الكانم. وعرفة مملكة بورنو معارك كبيرة من أجل الحفاظ على استقرارها والقضاء على الفتن و الاضطرابات التي قادها السلطان إدريس.

ثانيا: مملكة سنغاي :

تعرف هذه المملكة أيظا باسم (سنغوي) وقد أطلق اسم سنغاي لأول مرة على الجزء الممتد حول نهر النيجر وعلى الشعب الذي يسكن هذه المنطقة وعلي المملكة التي أقامها هذا

الشعب. ثم وسعت هذه المملكة رقعة أرضها بعد ذلك إلى أن بلغت بحيرة (ديو) شمالا وجنوبا إلى الحد الشمالي لمستعمرة داهومي الفرنسية (البنين الحالية).

تأسست مملكة سنغاي خلال القرن السابع للميلاد/الأول للهجرة، حيث تروي الروايات المحلية للمنطقة أن مؤسسها هو زعيم بربري من الليبيين يدعى (زا الأيمن) الذي فرمن الهجمات العربية واستقر في منطقة كوكيا (150 كيلومتر جنوب مدينة جاو) وفرض سيطرته على الشعوب البدائية من الصيادين ، وعندما استقر هؤلاء البرابرة في كوكيا كونوا ما يسمى بقبيلة سنغاي التي اتخذت المملكة فيما بعد إسمها منها. و بعد أن تنظم شعب (أو سكان) قبيلة سنغاي تحت سلطة واحدة كونوا دولتهم التي اتخذت كوكيا مقرا لها.

وقد عرفت سنغاي عدة ملوك بدءا بـ (زا الأيمن) ثم خلفه بعد ذلك أربعة عشر ملكا ماتوا كلهم في الجاهلية و لم يدخلوا الاستلام. لكن منذ القرن الخامس للهجرة /11م عرفت سنغاي تحولا عظيما في تاريخها بفضل اعتناق أول ملوكها الإسلام وهو (دياكوسي) أو (زاكوسي) سنة 400 هـ، والذي اتخذ لقب (دم) و تعني في لغتهم "أسلم طوعا" ، و كان أول عمل قام به الملك المسلم دياكوسي هو نقل العاصمة من كوكيا إلى مدينة جاو التي ذكرتها معظم المصادر العربية بكوكو والتي تبعد عن كوكيا بمائة وخمسين كيلومترا شمالا، و تقع على ضفة نهر يخرج من الشمال لنهر النيجر. و لما استقر دياكوسي في جاو بدأ في نشر الإسلام في ربوع المملكة، فكانت أسرة (ديا) هي أول أسرة ملكية في جاو تعتنق الإسلام، و بعد ذلك انتشر الإسلام انتشارا واسعا في المملكة وذلك بفضل جهود ملوك سنغاي ونفوذ المرابطين وفقهائهم و دور التجار المسلمين في المملكة.

بقيت مملكة سنغاي تشق طريقها نحو التطور، وعرفت ملوكا أقوياء بعد دياكوسي، ولعل أشهرهم ملك يدعى (فندا) الذي ذكره البكري خلال القرن الخامس للهجرة، والذي كان يتوقف الناس في عهده عن التصرف في المدينة عندما يبدأ هذا الملك في الأكل إلى غاية أن يفرغ من طعامه. و هناك ملك أخر من عائلة (ديا) وعاصر الإدريسي خلال منتصف القرن السادس للهجرة/12م حيث وصفه هذا الأخير بأنه « ملك قائم بذاته خاطب لنفسه، و له حشم كثير و دخلة كبيرة و قواد وأجناد و زي كامل وحلية حسنة، و لهم بأس و قهر لمن جاورهم من الأمم المحيطة بأرضهم».

و لعل قوة مملكة سنغاي اكتسبها من ثرائهم الناتج عن وقوعها في منطقة عبور هامة للقوافل التجارية، مما جعلها تنافس في ثرائها أعظم إمبراطوريات السودان الغربي مثل غانة و مالي. لكن هذا الثراء كان نعمة و نقمة على المملكة في نفس الوقت، ذلك أنه لفت أنظار جيرانها و جعلها محل طمع الطامعين.

ففي سنة 717هـ/1325م عندما كان ملك سنغاي (دياإسيباي) مسافرا إلى مكة لأداء فريضة الحج، كان إمبراطور مالي (موسى كاكان) عائدا بدوره من الحج فاستغل هذه

الفرصة، وعند مروره بالقرب من جاو أمر أحد قادته بالهجوم عليها. و بالتالي بسط سيطرة مالي علي سنغاي، كما أنه أسر ولدي مللك سنغاي وهما الأميران (علي كولن) و شقيقه (سليمان). و هكذا أصبحت بلاد سنغاي مجرد إماراة تابعة لسلطان مالي، واستمر الوضع على هذا الحال من الرضوخ تحت سلطة مالي لمدة فاقت القرن.

و في عام 869هـ/1464م تولى الحكم في جاو أحد أبناء الملك ديا أسيباي وهو علي كولن الذي هرب من البلاط المالي أين كان أسيرا و لقب نفسه بـ (شي كولن) أو(سني علي) و التي تعني "خليفة السلطان". و بالتالي أعلن سن علي استقلال مملكة سنغاي عن سيطرة مالي وأعاد لها قوتها بعدما قام بنهب جاو والسيطرة عليها برفقة (بر علي) عام 869هـ/1464م.

وكان الملك سني علي ذا قوة عظيمة، لكنه في نفس الوقت ظالما فاسقا متعديا متسلطا سفاكا للدماء، سيئ السيرة قتل من الخلق الكثير. و رغم أنه كان مسلما إلا أنه كان يقتل الفقهاء و يعذب الناس بالنار حيث أنه أباد قبيلة من الفلن (البول) عن آخرها تدعى قبيلة (سنقاري) و لم ينج منها إلا فئة قليلة احتمو بشجرة. و قد مكث سن علي بالملك سبعا وعشرين سنة، اشتغل فيها بالغزوات و فتح البلدان إلى أن توفي عام 897هـ/1492م. و هكذا أعاد سن علي أمجاد مملكة سنغاي واستولى على تمبكتو وجني و كل منطقة البحيرات وسيطر على مناجم الذهب في منطقة (بيتو) وأصبح سيد نهر النيجر.

و لماتوفي الملك سن علي في احدى المعارك عام 897هـ/1492، قام أحد قادته و هو (محمد توري) بانقلاب على أبنائه عام 858هـ/1493م، واستولي على الحكم و بالتالي بدأ عهد جديد وهو عهد حكم أسرة الإسقيين.

ثالثا: إمبراطورية مالي :

1- التأسيس:

بعد تعرض إمبراطورية غانة لهجمات المرابطين ضعف ملكها و بدأت تعرف طريقها إلى الزوال. ذلك أنه حتى و إن انسحب المرابطون فيما بعد تاركين الحكم فيها بيد ملوك غانة إلا أن نهايتها كانت وشيكة، حيث بدأت الأقاليم التابعة لسلطانها تنفصل عنها الواحدة تلو الأخرى، بدأت معها مساحة المملكة تتقلص انتهت بسقوط العاصمة كومبي صالح في أيدي حكام قبائل الصوصو الوثنين، الذين كانوا من قبل خاضعين لغانة في أيام مجدها.

ولقد استفحل أمر الصوصو وكونوا مملكة وثنية قوية على أنقاض إمبراطورية غانة فاستبدوا وبسطوا سيطرتهم على عدد من القبائل والشعوب المسلمة واستعبدوهم، و من هذه الشعوب التي تعوضت لغزوا الصوصو كان شعب (الماندينغ) أو (الماندينغو) الذي تصدى لهجمات و سيطرة ملوك الصوصو المستبدين. و كان شعب الماندينغ من بين أوائل الشعوب

التي اعتنقت الإسلام في السودان الغربي، و هو ما جعل العداوة والكراهية تشتد بينهما، وتعد عائلة (كايتا) زعيمة شعب الماندينغ صاحبة الفضل في التصدي لجبروت الصوصو وحاكمها القوي الذي يدعى (سمنغورو).

و بالرغم من اعتناق أسرة كايتا الإسلام في وقت مبكر (1050م/442 هـ)، إلا أن المصادر العربية بقيت تفتقد للمعلومات الدقيقة عن البدايات الأولى لإمارة الماندينغ التي كونت فيما بعد امبراطورية مالي. فابن خلدون يذكر أن أول من أسلم من ملوك الماندينغ يدعى (برمندانه). و هي المعلومة التي أخذها عنه من جاء من بعده من المؤرخين. بينما تبقى أهم المعلومات التي تزودنا بتاريخ تأسيس مملكة مالي مصدرها الروايات الشفوية المحلية المتداولة منذ سبعة قرون، و التي تناقلها شعب الماندينغ والتي تعرفت بـ (بلن تيقي).

و مهما يكن فإن إمارة الماندينغ عرفت عدة ملوك أشهرهم (موسى كايتا) الذي يعد المؤسس الحقيقي لعائلة كيتا الحاكمة، والذي كان مسلما وحج عدة مرات، و كان له ابن يدعى (ناري فامغان). وقد عرفت إمارة الماندينغ تحولا كبيرا في القرن السابع للهجرة/13م، حيث كان يحكمها ملك من أسرة كايتا يدعى ناري فامغان (حكم بين 615هـ-628هـ/1218م-1230م) والذي كان له اثنا عشر طفلا وهم : كوتونو نيو غو سيمبا، كابالي سمبا، ماري تانيا غيلي، نوثيى ماري، بيري سيغي، صوصو تولو، لانغاديا، موسوكورو موسوغانداكي، فانتيا ماغانبا، فييناوغو، كاوماغان كاكابوغاري، كالامبا، ديوكونتو، و أخيرا سونديانا.

وكان الملك(ناري فاماغان) في حرب مع إمارة الصوصو وأميرها الساحر الذي يدعي سمنغورو، وعند غزوهذا الأخير الإمارة الماندينغ قتل جميع أبناء ناري فاماغان ولم ينج منهم سوى الطفل الصغير (ماري دياتا) أو (سونديانا) ، حيث تقول الرواية أن سمنغورو احتقره و هون من شأنه بسبب عاهته. لقد كان سونديانا معاقا ولا يقوى على الوقوف على رجليه، فعاش طفولة صعبة و ظل مقعدا لفترة طويلة، وكانت أمه (سوغولون كوندية) موضع سخرية زوجات الملك ناري فاماغان الأخريات. و تمكن في سن السابعة من السير على قدميه بفضل السحرة و أصبح يتزعم أقرابة، ثم اضطر للهرب من الاضطهاد برفقة والدته و شقيقته و توجه إلى غانة حيث احتضنته مدينة كومبي، كما أعجب به ملك ميما (منسا تونكارا) و أوكل إليه مسؤوليات كبرى.

استقل سمنغورو المكانة التي حظي بها في منفاه عند ملك ميما ليكون جيشا نظاميا ذاع صيته، فاستدعاه أهل إمارة الماندينغ إليهم فلبى الدعوة، واستقبل سنديانا بحفاوة وحماس كبيرين من طرف شعب المالنكة، و كانت كل عشيرة قد كونت جيشها وانظمت إلى جيشه الذي كان أبرز القواد من أترابه مثل (تابون وانا) وابن عمه (كاماديان). و لما جهز سنديانا جيشه أعلن الحرب على زعيم الصوصو الملك سيمنغورو كانتي قاتل أبيه وإخوته و منتهك حرمة وطنه، و كان ذلك في عام 631هـ/1235م.

و كانت بدايات حرب سونديانا مع خصمه سمنغورو فاشلة بسبب كثرة عدد جيش الصوصو و قوتهم، بالإضافة إلى أعمال السحر التي كان يتفنن فيها سمنغورو و أتباعه. لكن بعد ذلك استغل سونديانا عدة ظروف لصالحه، منها التمرد الذي حدث في صفوف سمنغورو إذ انفصل عنه ابن أخيه (فاكولي) بعدما انتزع منه سمنغورو زوجته.كما قامت أخت سنديانا (التي كان سمنعورو قد تزوجها بدون إرادتها) والتي تدعي (نانا تريبان) بالهرب من معسكر الصوصو وهربت معها أسرار السحر التي كان يستعملها سمنغورو في حربه مع الماندينغ. لهذا فقد انضم جيش فاكولي المتمرد إلى جيش سنديانا وعبر نهر النيجر، و بدأت المعركة الحاسمة في كيرينا عام 631هـ/ 1235م التي حطم فيها جيش الصوصو واستولى على أرضهم و وسع حدود المملكة شمالا في الصحراء.

استغل سونديانا انتصاره الباهر في معركة كيرينا لينتزع ملك الصوصو و ملك غانة الذي يليه إلى البحر. ثم توجه بفتوحاته نحو الشرق في فوتا جالون، و النيجر ومنطقة جني، فما إن دخلت سنة 638هـ/1240م حتى كان سونديانا يتربع على عرش إمبراطورية كبيرة. و قام بعقد جمعية عامة في منطقة كوروكنفوقا (قرب كنقابا) و هي إحدى مدن مالي الواقعة على نهر النيجر، واجتمع بكل الماندينغ والمناطق الخاضعة له، و منح جزء من مملكته لكل واحد من حلفائه، كما بايعه زعماء القبائل الخاضعة واعترفت به إمبراطورا. و بعدما أقام الإمبراطورية رأى سونديانا بأن مدينة (جليبا) التي تتكون منهما عاصمة المملكة لم تعد تصلح ولا تتسع لبلاطه و نشاط دولته، فنقل العاصمة إلى (نياني) التي تقع فأعاد بناء المدينة التي كانت في ذلك الوقت عبارة عن خرائب[4]في مكان غير بعيد عن جيليبا. و كان قد سجل فيها أعظم انتصاراته على ملك الصوصو.

2. تطور وازدهار إمبراطورية مالي ما بين 638 و789هـ/ 1240 و1387م:

مثلت هذه الفترة أهم أدوار الإمبراطورية، سواء من حيث التوسع الجغرافي أو التنظيم العسكري وانتصاراتها، بالإضافة إلى دورها الحضاري في المنطقة. و كانت سنة 638هـ/1240م، بداية هذا العصر الذي اعتلى فيه (سونديانا) عرش الإمبراطورية المالية التي أصبح حكمها يمتد على حساب مملكة غانة بعدما ألحقتها بها.

كما بدأت في التوسع باتجاه الشرق حتى بلغت حدود بلاد البورنو، و باتجاه الشمال إلى غاية بلاد البربر و جبالهم، أما حدودها جنوبا فقد أصبحت تحاذي بلاد الهمج الوثنين، كما بلغت من جهة الغرب البحر المحيط. و حدد القلقشندى مساحتها نقلا عن العمري بأربعة أشهر طولا أو أزيد وعرضها مثل ذلك. كما اتخذ أمراء الماندينغ لقب (منسا) ومعناه السلطان، وذلك لأول مرة في تاريخهم.

[4]العربي (إسماعيل) : المرجع السابق، ص 299.

و قد سجلت الإمبراطورية عدة ملوك تعاقبوا على عرشها بدءا بسوندياتا مؤسس الإمبراطورية، مرورا بـ (منسا موسى) الرجل الصالح والملك العظيم، وأخيه سليمان وغيرهم. و كل منهم هيأ عهدا مميزا في تاريخ مالي.

أ- عهد سوندياتا : بين 638-653هـ/ 1240- 1255م:

و يعد عهده دور التأسيس و الانطلاق نحو العظمة في نفس الوقت. حيث قام سوندياتا منذ توليه الحكم بتوجيه حملات عسكرية من العاصمة (نياني) باتجاه الغرب، فوسع حدود المملكة و ضم إليها منطقة حقول الذهب الكبرى في (بامبوك). ثم واصل العمليات العسكرية حتي بلغت فتوحاته أسفل نهر السنغال ونهر غامبيا ومستنقعات التكرور، و بذلك أصبحت مالي أعظم و أقوى ممالك السودان الغربي. ولعل هذا الدور الذي بلغته مالي خلال هذه الفترة يرجع إلى المجهودات التي قام بها الملك سوندياتا في سبيل تدعيم صرح الإمبراطورية.

ففي الميدان العسكري أنشأ سوندياتا جيشا نظاميا قويا و مدربا، يقود كل فرقة منه قائد دائم يلقب بـ (كيلي بولون)، بينما يتولى قيادة الجيش العامة الملك شخصيا و يلقب بـ (كيلي تيجي). وكان الجيش ينقسم إلى : الخيالة المسلحة بالسيوف، و جيش المشاة المسلحة بالفؤوس والسهام والحراب الطويلة التي تسمى عندهم (طامبا)، والتي كانت تبعث الرعب في قلوب الأعداء.

و في الميدان الزراعي تقول الرواية الشعبية المحلية، أن سوندياتا كان يولي عناية خاصة للتنمية الزراعية، وأنه هو الذي أدخل إلي مالي زراعة القطن و الأراشيد وغيرها من المزروعات، واهتم أيضا بتربية الحيوانات. وفي الميدان السياسي فقد نظم أحوال الإمبراطورية بتشكيل جمعية عامة انبثق عنها نظام شبه فدرالي، و ولى على كل جزء من مملكته أحد حلفائه من المانديغ.

و عموما فقد أبهر سوندياتا الماليين و نسجت حول شخصيته أساطير عديدة مازالت تروى إلى غاية الوقت الحاضر. كما تنسب إليه عدة خصال ومواهب جعلت منه رجلا خارقا العادة، فهو مقاتل بارع و منظم كفء، كما يحكى عنه تمتعه ببعض القوى السحرية كذلك.

لهذا فإن المؤرخ (نياني) يقول عنه ما يلي : «من المؤكد أنه لو لم يذكر ابن بطوطة عام 1353م وابن خلدون من بعده سنة 1376م هذا الفاتح في كتاباتهما لاعتبر المؤرخون الأوربيون سوندياتا شخصية خيالية أو أسطورية، نظرا للمكانة الفائقة التي احتلها في الروايات الشفوية لتاريخ مالي». و قد اختلفت المصادر التاريخية حول مدة حكم سوندياتا، فمنهم من يقول خمس وعشرون سنة، و منهم من يقول حكم مدة عشرين سنة. كما يذهب آخرون إلى أنه لم يحكم سوى خمس عشرة سنة،و بالتالي فوفاته تكون بين عامي (1255م/635هـ) و(1265م/664هـ. وكانت وفاة سوندياتا مفاجئة و مؤلمة، حيث تعرض لضربة سهم طائش من قوس ابن صديقه أثناء إقامة حفل للرماية على شرف سوندياتا. وبذلك ينتهي عصر يبقى من أزهي عصور إمبراطورية مالي.

ب- عهد خلفاء سوندياتا :

صحيح أنه إلى غاية القرن 13م/7هـ لم تكن مالي سوى عبارة عن مملكة متواضعة، و أن سوندياتا هو الذي صنع عظمة مالي إلى درجة أن القرن الثالث عشر للميلاد/السابع للهجرة اعتبر عصر سوندياتا. لكن يجب الإشارة إلى أن سوندياتا ترك وراءه جيلا من الملوك الذين خلفوه و حافظوا على هيبة الإمبراطورية و مكانة عائلة (كايتا).

فهناك نوعان من المصادر التي تتحدث عن خلفاء سوندياتا، فمنها الروايات والمخطوطات الخاصة بشعب الماندينغ المعروفة بروايات (كيتا ديوما) والتي قدمت لنا قائمة كاملة لزعماء و حكام مالي. بالإضافة إلى المصادر العربية وأهمها ابن خلدون الذي يعد أول من ذكر قائمة بأسماء ملوك الماندينغ.

لكننا نجد هناك بعض الاختلاف في الأسماء بين ما ذكرته التي ذكرتها الروايات المحلية و ما ذكره ابن خلدون. و هذا يعود ربما إلى كون ابن خلدون عرف أسماء حكام مالي وغانا عن طريق بعض العلماء العرب الذين إلتقاهم بالحج، و منهم الشيخ عثمان فقيه أهل غانة الذي التقى به بمصر عندما كان متجها إلى الحج، والحاج يونس (ترجمان التكرور)، والقاضي أبو عبد الله محمد بن واسول وهو (قاضي من سجلماسة) وغيرهم. و بالتالي عرف تلك الأسماء بلسان عربي يمكن أن يكون محرفا عن الأسماء الأصلية. بينما كان لملوك مالي ألقاب أخرى يلقبون بها عند شعوبهم.

ومهما يكن فان الترتيب الذي ذكره بن خلدون في أسماء خلفاء سوندياتا يعتمد عليه كثيرا من طرف المؤرخين العرب و حتى الأجانب.

لقد خلف سوندياتا بعد وفاته ابنه (منسا ولي) و مسنا تعني (السلطان) و ولي تعنى (علي) بلسانهم، و الذي حكم بين عامي (653هـ-668هـ/1255م-1270م) وكان من أعظم ملوكهم، فقد أدى فريضة الحج في عهد الملك الظاهر بيبرس، كما شهدت الإمبراطورية في عهده اتجاه نجد نحو اللامركزية، بعدما أقطع الأراضي لقادته الكبار.

و بعد وفاة الملك منسا ولي عام 668هـ/1270م خلفه (أبو بكر الأول) الذي كان يحمل لقب (مندي بوري) و التي تعنى انتماءه إلى سوندياتا عن طريق أنثى. و بذلك يكون رأي ابن خلدون هو الأرجح عندما يشير إلى أن سوندياتا لم يكن له أبناء غير منسا ولي، و أن أبا بكر الأول كان ابن بنت سوندياتا.

و على كل فإن أبا بكر الأول تميز بالضعف، و كثرت الخلافات حول العرش في عهده و تلاشت قبضته على الإمبراطورية. لهذا فإن وفاة الملك أبي بكر الأول أحدثت غموضا كثيرا في تاريخ مالي. حيث لما توفي الملك أبو بكر الأول عام 683هـ/1285م، واجه البلد مشكلة بشأن من يخلفه على العرش. و في ظل هذه الفوضى ظهر رجل من القادة العسكريين، -

والذي كان من الموالي العبيد في السابق قبل أن يتحرر- و هو (سكورة) الذي استولى على الحكم عام 683 هـ/1285م، و نصب نفسه إمبراطورا جديدا على مالي.

لقد أحدث استيلاء سكورة على عرش مالي انقطاعا لحكم أسرة كيتا دام خمس عشرة سنة (من 683 هـ إلى 700 هـ/ 1285 م إلى 1300 م)، حيث يعد أول إمبراطور لمالي لا ينتمي إلى عائلة كايتا. لكن الأحداث أثبتت أنه كان ملكا كفؤا، بارعا في الحرب وفي السياسة. واستطاع أن يعيد لمالي هيبتها، و عمل على توسيع رقعتها أكثر، حيث مدد حدودها شرقا على حساب مملكة (كوكو) حديثة الظهور أنذالك، أما غربا فقد ضم منطقة (مسينا)، و أصبح ملك التكرور تابعا له.

كما تميز سكورة بالتقوى و شهد له بالحج أيام الملك الناصر. واستطاع أن يعيد لمالي الأمن و الاستقرار، و قضى على دابر الفوضى إلى أن توفي عام 700 هـ/1300م، حيث قتل عندما كان عائدا من الحج عند منطقة (تاجورة) قرب طرابلس. و قام رفقاؤه في السفر بتحنيط جثته و وضعوها في جلد ثور، و نقلوها إلى بلاد الكانم بورنو، التي بعث ملكها بمن يحمل جثته لتدفن في مالي.

و رغم وفاة سكورة تمثل نهاية ملك حاول الحفاظ على قوة الإمبراطورية و تماسكها، إلا أنها كانت فرصة لعودة الحكم مرة أخرى لعائلة كيتا. حيث تقول المصادر العربية أنه بعد وفاة سكورة توالى على عرش مالي كل من الملك (قو) ثم من بعده ابنه (محمد بن قو)، إلى أن انتقل الملك بعد ذلك إلى (أبي بكر الثاني) و هو ابن أخ سوندياتا. بينما لا نجد ذكر للملكين الذين سبقا أبا بكر الثاني عند المراجع الأجنبية و لا حتى الروايات الشعبية المحلية المعروفة باسم (كيتا ديوما).

و قد تولى عرش مالي أبو بكر الثاني في عام 703 هـ/1303م الذي اشتهر بطموحه الكبير، الذي أدى به في سنة 1310م إلى تجهيز مائتي سفينة و أرسلها إلى المحيط الأطلسي من أجل الاستطلاع و البحث عما يوجد وراء هذا البحر الذي كان يطلق عليه آنذاك اسم (بحر الظلمات)، و لكن بعد فترة لم تعد سوى سفينة واحدة من السفن التي أرسلها، لذلك أرسل بعد ذلك ألفي سفينة أخرى، لكن هذه المرة لم تعد و لا سفينة. و هكذا راح الملك أبو بكر الثاني ضحية طموحه حيث اختفى مع السفن التي أرسلها و لم يعد. و بالتالي شهدت الإمبراطورية بعده عهدا جديدا عندما تولى الحكم فيها الملك المشهور (موسى كاكان) ابن أبي بكر الثاني.

ج - عهد موسى كاكان (منسا موسى) بين 707هـ إلى 729هـ/1307إلي 1329م :

هناك اختلاف بين المؤرخين المعاصرين حول تحديد بداية عهد منسا موسى، فهناك من يحددها بسنة 707هـ/1307م[5] بينما يحددها آخرون سنة 712هـ/1312م. و لعل ذلك

[6] CORNEVIN : Opcit, P 163.

اختلاف مرده إلى الغموض الذي انتهي إليه مصير أبيه أبي بكر الثاني خلال رحلته إلى المحيط الأطلسي. ذلك أن الملك منسا موسي لم يتول عرش مالي حتى انقطعت أخبار أبيه أبي بكر الثاني. و يصنف عهد مسنا موسى بأكثر العهود ازدهارا و شهرة في تاريخ السودان خلال العصور الوسطى، و ذلك نتيجة للدور الذي قام به هذا الملك.

كان منسا موسى بن أبي بكر رجلا صالحا و ملكا عظيما، أدى فريضة الحج عام 724هـ/1323م. كما كان يعتق كل يوم نفسا.و يحكى عن هذا الملك الذي كان يلقب أيضا بـ (موسى كاكان) أو (كنكن موسى) أنه لما خرج إلى الحج في أحد المواسم حمل معه قوة عظيمة، و مالا عظيما و جيشا عرمرما و معه ثمانون ألفا من الجند وخمسمائة من النسوة وثمانية آلاف و سبعمائة من العبيد، و قيل ستون آلف رجل و خمسمائة من العبيد.

أما أعماله العسكرية فقد كانت مهمة وكثيرة، فكان أول ما قام به هو بناء جيش قوي حتى أصبح لديه أقوى جيش في السودان الغربي كله خلال تلك الفترة، و بعد أن فتح مناطق واسعة في الغرب حتى المحيط الأطلسي توسع باتجاه الشرق إلى أن وصلت حدود مملكته مشارف بحيرة تشاد.

و لما كان يدرك الأهمية الحيوية التي كانت تلعبها مناطق التقاء الطرق التجارية من الناحية الاقتصادية والسياسية، فإن منسا موسى قام بالسيطرة على مملكة سنغاي عام 717هـ/1325م، بحيث استغل أمير جيشه الملقب بـ (سقمان) فرصة غياب ملك سنغاي (ديا أسيبا) عن المملكة لأداء فريضة الحج، فاستولى على جاو، و قدمها كهدية لمنسا موسى لما عاد من الأراضي المقدسة، بعدما أخذ أميري سنغاي كرهينتين، فحول منسا موسى اتجاه سيره من نياني (عاصمة مملكته) إلى جاو (كوكو) التي دخلها فاتحا أين استقبله أمراؤها وقدموا له فروض الطاعة والولاء.

و واصل منسا موسى فتوحاته حتي أصبحت الإمبراطورية تضم كل التجمعات البربرية الواقعة جنوب الصحراء، وامتدت سلطة ملكه جنوبا إلى غاية غابات غينيا، وشرقا حتى بلاد الهوسا.

و من أعماله التوسعية العظيمة فتحه لمدينة تمبكتو، إذ يعد أول من دخلها فاتحا من ملوك مالي و جعل خليفة له فيها، وابتنى بها دارا للسلطنة فسميت بـ (مع دك) ومعناها في لغة المالينك دار السلطان، كما بنا صومعة الجامع الكبير بها. وقد اعتنى منسا موسى ببناء تمبكتو حتى أصبحت البلد الأم للتجارة في بلاد السودان في العصور الوسطى. كما أصبحت مالي في عهده محطة علمية بقدوم الفقهاء والأدباء والعلماء، و كان منسا موسى من أكبر الدعاة للإسلام أيضا.

أما دبلوماسيا فقد أخرج منسا موسى مملكة مالي من عزلتها واكسبها سمعة دولية، حيث ربط علاقات دبلوماسية مع سلاطين القاهرة و المغرب الأقصى اللذين كان لهم سفراء في

بلاط ملك مالي. كما كان لهذا الأخير سفراء في القاهرة و مراكش. فبفضل منسا موسى نال اسم مالي شهرة كبيرة في الأندلس ومراكش و خراسان، إذ أنه في سنة 731هـ/1339م، وجد اسم مالي مكتوبا على خرائط العالم التي وضعها الجغرافي الإيطالي (أونجيلو دولسرت)، كما وجد في الأطلس الجغرافي الذي وضعه (أبراهام كريسك) لشارل الخامس ملك فرنسا، و فيه اسم مالي مرسوم بوضوح.

كما سجل الرحالة و التاجر الإيطالي (مالفنت) في مذكراته أن جمهورية ايطاليا كانت تطمح للاتصال بمالي والتعاون معها في عهد منسا موسى. و هكذا استطاع هذا الملك أن يعيد مجد مالي و يحافظ على استمرارها.

أما تاريخ وفاة منسا موسى فقد حدث خلاف حول تحديده، فبينما يحدده إسماعيل العربي سنة 733 هـ/1332م. فإن الزوجين (كورنفان) يحددانها بعام 736هـ/1335م. لكن من المرجح أن يكون قد توفي سنة 733هـ/1332م، و ذلك لأن خليفته على العرش و هو ابنه (منسا مغا) هلك بعد أربع سنوات من الحكم، و ولي بعده شقيقه (منسا سليمان) بن أبي بكر الثاني. وإذا علمنا بأن منسا سليمان حكم عام 737هـ/1336م، فإن سنة وفاة منسا موسى قد تكون في عام 733هـ/ 1332م. و مهما يكن فإن وفاة منسا موسى تركت فراغا رهيبا في مالي، حيث عمت الفوضى بمجرد تولي ابنه (مسنا مغا) الحكم وذلك بسبب افتقاده لصرامة أبيه و حزمه. و عرف بالتساهل في إدارة شؤون المملكة، وهو الشيء الذي مكن ابنا ملك جاو الرهينتين من الفرار، كما وقع في عهده نهب مدينة تمبكتو على يد الموسيين.

و بعد وفاة منسا مغا، تولي العرش بعده (منسا سليمان) بن أبي بكر وهو أخو منسا موسى الذي اجتمع له ما كان أخوه قد افتتحه من بلاد السودان ، و رغم صفة البخل التي تميز بها منسا سليمان، إلا أنه استطاع إصلاح شؤون البلد المالية، وأعاد الأمن إلى المملكة، إذ لم يكن يسامح أحدا في أي جانب منه، كما استعاد سيطرة مالي على الولايات الشرقية، وأصبح في عهده رؤساء الطوارق في تكدا يعترفون بسلطانه و يدينون له بالولاء، فاستفادت بذلك المملكة من نحاسها. كما واصل سيرة أخيه نشر الإسلام و بناء المساجد و الجوامع والمنارات و حرص على صلاة الجماعة و إقامة الأذان.

و قد حكم منسا سليمان بين سنتي 724هـ و762هـ /1341 م و 1360م، أعاد خلالها مجد المملكة الذي ميز فترة حكم أخيه، و حافظ على العلاقات الدبلوماسية التي ربطها منسا موسى مع ملوك المغرب الأقصى.

و بوفاة منسا سليمان عام 762هـ/1360م دخلت المملكة في عهد جديد من الفوضى والصراع حول العرش الذي أدى إلى سقوطها.

. سقوط إمبراطورية مالي:

إن بداية انحطاط إمبراطورية مالي كانت مع وفاة منسا سليمان. حيث خلفه ابنه (قنبتا بن سليمان)، و يلقب أيضا بـ(كاسا سليمان)،والذي حكم فترة قصيرة قدرات بتسعة أشهر فقط، ثم ولي بعده (ماري جاطة بن مسنا مغا بن منساموسى) والذي حكم مدة أربعة عشر عاما.

وكان ماري جاطة هذا شر الناس حسب ابن خلدون ، حيث أساء السيرة و أفسد ملك مالي وأتلف ذخائر البلاد، بكثرة إسرافه وتبذيره إلى درجة أنه قام ببيع حجر من الذهب تزن عشرين قنطارا إلى تجار من مصر بأبخس الأثمان، رغم أن تلك الحجرة كانت تعد أنفس ذخائر ملوك السودان نظرا لندرة وجود مثلها. كما اشتهر بالكسل وعدم اكتراثه بشؤون البلاد إلى أن توفي عام 776هـ/1374م، حيث أصابته في أخر أيامه علة النوم والشعور بالنعاس، وهو مرض كثير ما كان يصيب أهل تلك البلاد، واستمر به المرض لمدة سنتين إلى أن توفي.

بعد ماري جاطة خلفه ابنه موسى الثاني، الذي حكم مابين (776هـ و789هـ/ 1374م و1387م والذي حاول أن يعيد الإمبراطور إلى نصابها عن طريق تطوير الإدارة والعدالة. لكنه تغلب عليه وزيره (ماري جاطة) الذي كان يتصرف بشؤون الدولة كما يشاء، و تحكم في مقاليد الحكم، و قام بتدبير أمور الدولة أحسن تدبير، كما قام هذا الوزير بغزو مدينة تكدا الغنية بالنحاس، وقاد حملة إلى بلاد البورنو وحملة أخرى على التوارق . و رغم استيلاء ماري جاطة على السلطة إلا أنه أبقى على الملك موسى الثاني و لم يزحه عن العرش إلى أن توفي عام 789هـ/1387م.

و بعد وفاة موسى الثاني، قامت نزاعات واغتيالات من أجل الاستحواذ على السلطة بين الأشقاء والأقارب أدت إلى انهيار المملكة، حيث انتقل الحكم إلى أخيه (منسا ماغا الثاني) الذي قتل بعد سنة واحدة من توليه الحكم. ثم استولى على الحكم زوج أمه و المسمى بـ (صندكي) ومعناه الوزير، ثم قتل بعد أشهر من طرف رجل من بيت ماري جاطة و خلفه رجل اسمه (محمد)، و يدعي انتسابه إلى (منسا قو بن منسا ولي بن ماري جاطة) و ذلك عام 793هـ/1390م.

وفي هذه الفترة من الضعف والنزاعات الداخلية، كانت قد ظهرت قوة كوكو (جاو) التي أخذت تضم ولايات مالي الواحدة تلو الأخرى إلى أراضيها حتي استولت على جني وهي إحدى المراكز التجارية الهامة لمالي.